المساواة

(١٠)

رسالة طارق

الى ميّ

وأنا ايضاً كالسيدة جليلة تتبّعتُ مقالاتك عن « المساواة » . فرأيتك تارةً تهيمين بين الانقلابات العمرانية وطوراً تهمّين لتطلقي في أحد فروع الموضوع حكماً جزئيّاً لم يكن ليتوقّع سواهُ قارىء اوّل فصولك عن «الطبقات الاجتماعية». بل لا يتوقّع سواهُ ذو عينين تبصران ولُبّ يعقل

خططتِ العنوان وادرتِ الطرف في ما حولك فشاهدتِ تعدُّد الموجودات وتمايز الانام فنقلتِ قسراً تلك الصورة المتجدّدة في البريّة — صورة التطوُّر من أدنى الكائنات الى أرقاها ، وخضوع الوحدات الصغيرة للوحدات الكبيرة ، ووجوب الفناء لاستمرار البقاء وهو الغاية المُثلَى التي تضمحلُّ في سبيلها الصور والآجال

كذلك قرأتُ باهتمام تدوين مناقشتنا الاخيرة منتظراً منكِ الحكم النهائي . ولقد ذكرتِ انكِ شكّلتِ من قوالك « هيئة محلّفين » ولكن نسيتِ ان مثل تلك الهيئة لا تنهي القضايا على الوجه الذي اخترت وانما عليها ان تهيء حكماً ما ، للدائرة العليا نقضهُ او ابرامهُ

بيد اني افهم ان الابحاث التاريخية والمواقف الادبية هي غير المحاكم والقضاء، وافهم كلّ الفهم معنى ابتهالك للّيل والحياة . ولكم ناديتُ الليل واستغثتُ بالحياة عند التباس المسالك واشتداد الخطوب ! ولكم أحيطني العيُّ والقنوط عند ما جاءت الوقائع تكذبُ ما انا في حرارة اخلاصي عضدتهُ وعزّزتهُ ! فمَعَقب فشل آمالي الشكُّ الاليم وصرتُ اودُّ سحق المخادعة والرياء سحقاً . اما التحمس الصادق فلهُ مني مزيج اعتبار وشفقة . لذلك اقدر تحمس عوني واشفق عليهِ جميعاً — وان حاولتُ اخفاء مشاعري وراء نبرات التهكم والمناوشة

لقد تألم صديقي شديداً . وكيف لا يتألم في محيطنا الاناني من كان له من عرفي رقة العواطف ونبل الفكر وسمو الميول ؟ غير ان المه ناقص لانه جاءه من فئة واحدة من الناس : فئة العظماء والاغنياء والاشراف . فتخيل ان الرذيلة تحصنت في القصور وان الفضيلة استوطنت الاكواخ . وحسب السعادة حيث الرغد ، والتعاسة حيث الشظف ، ولم يفهم الحرمان بغير معناه الظاهر . ومن هنا مبعث خطاه وتحمسه معاً

وكنت في البدء مثله هو وجماعته ارى الحاجة كل الحاجة في فراغ اليد فأنادي بالمساعدة دون حساب ، واعني ان يكون لحي للجائع قوتاً ودمي للظامئ شراباً . والظلل حولي كنت اظنه خللاً في قسط . وزعمت جميع النفوس من درجة واحدة فقضيت اجاهد لاعلائها جميعاً الى اوج قطنته تلك النفوس القليلة التي وضعتها الحياة على طريقي فاثار النبل منها احترامي واعجابي

شببت فاذا بي مخطئة ، وان ما فيَّ من خلل منشأه الطبيعة البشرية المتوازنة اجزاؤها نقصاً وكمالاً . ورأيت ان انانية تسربلت بالحرير ليست باطمع من انانية ارتدت الاطمار ، وان كبرياء تسترت بالتشامخ والصمت والتأله ليست باكره من كبرياء توارت في التذلل والتوسل والنحيب . وتبينت في كل مرتبة اثرة وتحيزاً واستعداداً قصياً للجور والطغيان ، بل تبينت ذلك في كل فرد من افراد المرتبة الواحدة والاسرة الواحدة . علمت ان بعض العقول قفر ، وبعض القلوب صخر ، وبعض النفوس رموز حية لليأس والنكد ، وبعض الصور البشرية انعكاس لتمثال الشقاء الدائم . وادركت للحرمان معاني جمة

لقد تيسرت معالجة العوز المادي فتنظمت الجمعيات الخيرية تطعم الجياع ، وتكسو العراة ، وتعلم ابناء الفقراء . وها ان جمعيات التعاون تحرر العامل من تحكم صاحب رأس المال — اعني ان الادوار تبدلت وان التحكم صار الآن للعامل . ولكن اي جمعية واي شيوعية ترغم الطبيعة على بسط يدها ان منعت وتغيير نظامها ان جارت ؟ هاك زهرة نضرة في حقل الشوك والعليق ، فما ذنبها ؟ هاك شجرة فريدة وسط الصحراء ، فلماذا تشقى ؟ كل يرحم من قضى جوعاً ولكن من ذا يرحم قلباً جائعاً الى الحب العظيم ، وفكراً ليس له من يفهمه

ويقدره ، وتعساً طويت على الحنان وبذل الذات تترقب مجيء من تمد بالتضحية لاجله فلا يجيء ، كأن نهر الاعمار جرفهُ في تيار قديم ؟ اي تنظر لمن صانع فلم يكافأ بقدر النجح ونكران الجميل ؟ اي تعاسة لمن لا يؤذي الناس متعمداً فيحرم الصحة مثلاً ، او النظر ، او النطق ، او يُسلب عزيزاً ؟ وذاك الوالد الصالح الرصين ، لماذا ابتلي بولد مستهتر ابله ؟ وذاك الثري المحسن لماذا يُحرم هو وزوجتهُ نسلاً قد يحسنان تنشئتهُ بينا ذلك السافل الشرير يستعمل اسم ابنائه آلة للاحتيال وارضاء الاهواء ؟

هذه حرمانات قليلة من حرمانات عديدة خرساء لا اسم لها . ولقد قال بركليس زعيم الديمقراطية اليونانية « عندنا لا يخجل أحد بفقره ، وانما يخجل بأنهُ لم يكافح الفقر بالنشاط والعمل » . فاذا تيسَّرت معالجة الفقر ، ولو معالجة نسبية ، بالنشاط والعمل ، فكيف تُعالَج حاجات أُخرى ليس لموهبةٍ مهما شرفت وسمت ان تتغلب عليها ؟ وما هذا النظام الذي يزعمون فيه الانصاف والمساواة ، وهو لا يتناول سوى الظاهر الممكن تعديلهُ بلا سلب ولا فتك — في حين تظل جميع الحرمانات الاخرى تنشب في القلب أظفارها ؟

قد تقولين الآن ان اليأس من شفاء المرض الواحد لا يستوجب اهمال المرض الآخر ، وهذا صحيح . وقد تقولين ما يلمحهُ اليَّ بعض اصحابي الاشتراكيين ، وهو انّي ارستقراطيّ النزعة وان احكامي العامة تقوم على اعتبارات خاصة . أمَّا انّي ابني احكامي على مشاهدات شخصية فأُسلّم به ، واودُّ ان اسأل كل ذي رأي ، بل اودُّ ان اسأل الذين سنّوا الشرائع والانظمة ، وكوّنوا الجمعيّات والاحزاب ، واحدثوا الثورات والاصلاحات — اود ان اسألهم هل يمكن الاقتناع بغير الاختبار الشخصيّ ، وهل يكون اليقين يقيناً إن لم يُبنَ على اقتناع فرديّ ؟

وأما انّي ارستقراطي النزعة فينقضهُ انّي أكادُ أرى رأي ذلك الكاتب الامريكاني الذي اثبت بالادلة التاريخية ان اكثر رؤساء الولايات المتحدة ورؤساء الجامعات في هاتيك البلاد ، ومديري المصارف والشركات ، وزعماء الاحزاب — ان اكثرهم ينتسبون الى شرلمان ملك الفرنسيس . واقول معهُ ان الشعوب المختلفة لو عادت مئات السنين الى الوراء لوجدت لها جدوداً واحدةً وسلفاً واحداً . فتكون

جميعاً ابناء مولك ؛ وان تاهت منا الاسماء خلال تشعّب الانساب . ومع تسليمي بصدق الوراثة على قياس خمسين في المائة تقريباً . فاني اذكر كذلك الامتيازات الفردية التي لم تجعل الامبراطور ماركس اوريليس انطونيوس أعظم من اخيه في الرواقية والبسالة الاخلاقية،العبد ابكتتس . واذكر ان امونيوس ساكاس مؤسس الافلاطونية الجديدة التي ربما كانت اكبر مدرسة فسلفية عرفها التاريخ — كان حمّالاً . وان فاراداي أحد اعاظم العلماء المكتشفين كان ابن معدمين وحصَّل قوتهُ اعواماً طوالاً من بيع الصحف ، عاري القدمين في شوارع لندن . وهلمّ جرًّا

لقد تأملتُ في حياتي لامور كثيرة ومن مختلف المراتب ، وتأملت من مجموع الوراثات المتجمعة فيّ التي اسميها « نفسي » . واعرف من جهة علم المجتمع ؛ وعلم الحياة من جهة أُخرى . واني لمن الصائحين عالياً بالثورة على كثير من الانظمة والعادات والاصطلاحات كما اني من الصائحين عالياً بوجوب الامتثال لانظمة اخرى وقبول عادات واصطلاحات موافقة في تقديري . اعرف الحياة صالحة محسنة جميلة من الجانب الواحد ، وخادعةً غادرةً قبيحة من الجانب الآخر . إلاَّ اني « زردشتيٌّ » من حيث إيماني بان الغلبة النهائية للخير والصلاح والجمال . ولو اردت ان اعرّف الحزب السياسي او الاجتماعي الذي انتسب اليه ، لقلتُ اني ارستقراطي — ديمقراطي — اشتراكيّ سلميّ — اشتراكيّ ثوروي — فوضوي — عدميّ — الى آخره . كل ذلك دفعة واحدة وبوقت واحد . واذا خطر لكم ان تضحكي ذكّرتك برينان الذي كتب يوماً انه بصفحة لاحد كتّابنا فاربهن لكم انهُ في السطور العشرة الاولى ذو نزعة تختلف عن نزعته في السطور العشرة التالية ، كما تختلف هذه عن السطور الاخرى . وما ذلك الاَّ لان جميع النزعات موجودة في كلّ منا وان تغلّبت احداها على الاخريات ، وهذا التغلّب وحدهُ هو الذي يبرز في مختلف الافراد قسمُ الواحد منا بوسعه ؛ ويضع لهُ العنوان الذي يُعرف به .

لو كنتُ ذا كلمة مسموعة بين حكومات العالم لجعلتها تعرض عن اصطخاب الاحزاب التي خلق كلٌّ منها لنفسه ياناً ذا الفاظ يتمثّلُ فيهما قرع النواقس ، ودويّ المدافع ، ونشر الاعلام ، وتنضيد الاعلانات ، وحفر الخنادق ، وحركات

الهجوم والدفاع . كلهم يشكون الظلم وكلهم ظالمون . كلهم ينادون باسقاط الجاني وكلهم جانون . لكن اولئك الظالمين الجانين مظلومون ايضاً بحكم الوراثة والاحوال والقدَر . فهم لم يخلقوا انفسهم مختارين بل خلقتهم حوادث دهرية لم يكن لهم فيها يد ولها فيهم كلّ النفوذ . ولقد طال جهاد الانسانية للتحرر من ظلم ما ورثت من غرائز غير مدركة كما تطلب التحرُّر من طغيان الطبيعة ، واستبداد الاقوياء ، وبطش السلطات ، وسفالة الجبناء ، وحسد الخاملين . فعصرنا اليوم في عصر الكلام الرنّان تتلاطم فيه الفاظ « الشرف والعظمة والحرية والاستقلال والمروءة والانصاف والتعاون » وانما هي الفاظ فارغة قلما فكَّر مرسلوها في معانيها . كلنا نطالب « بحقوقنا » وليس منا المهتمّ بتأدية واجبات تُشترى بها الحقوق . ولعلّنا حيال الثورة على رأس المال نحتاج الى ثورة على الدعوى والغرور . ثورة حصيفة — اذا جازفت الثورة بالحصافة — تحدّد الكفاءات ، وتقسّم العمل ، وتعرّف الواجبات ، وتضع الناس في مراكزهم لا عن تحيز لامتيازات الوراثة ، ولا تملُّقاً للمال أو مراعاة للاكثرية ، بل وفقاً للكفاءة الطبيعية الملزم المجتمع باعانتها وتعهدها والاستفادة منها عند جميع اعضائه .

قلتُ اني لو كنتُ ذاكلمة مسموعة لسننتُ القوانين الآتية واحكمتُ تنفيذها قبل اصلاح الشوارع ، وانشاء المعارض ، وبناء المتاحف ، واقامة الاحتفالات ، ونصب التماثيل وهي :

اولاً — إيجاد مطاعم عمومية ومنازل للمبيت . فعارٌ على المدنية ان يموت فيها افرادٌ من الجوع والبرد ، وعار اشدّ ان يستعطوا قوتهم ويناموا على قارعة الطريق ، او ان يعمدوا الى السرقة والنصب والتهجُّم على المثقلين باعالة نفوسهم واتمام اعمالهم العسيرة . ويجب ضبط النظام في تلك المطاعم لمنع الاحتيال . لان الاستعطاء ليس دواماً حاجة غذائية بل كثيراً ما يكون حالة نفسية

ثانياً — منع التسوُّل بتاتاً . فالصالحون للعمل يجب ان يعملوا لتحصيل على بقوتهم . واما الآخرون المرضى والعجزة وذوو العاهات الجسمية فيأوون الى الملاجىء القائمة على نفقة الحكومة أو المجتمع

ثالثاً — جعل التعليم الاوليّ مجانياً ، على ان لا يكون متماثلاً للجميع بل يتملم

كلٍّ وفقاً لاستعداده ما يحتاج اليهِ وينفعهُ في عملهِ . فتاجر الاثاث لا يحتاج الى النظريات الفلسفية ، وصانع الاحذية لا يحتاج الى الهندسة الزراعية ، والمهندس لا يحتاج الى علوم النظم . وطبيعيّ ان لكلّ ان يتوسع بعدئذٍ في ما يميل اليهِ من المعارف الكمالية — على نفقتهِ الخاصة

رابعاً — ايجاد مكاتب عمومية تُمتحن فيها الكفاءات وتوزَّع فيها الوظائف والاعمال حسب الاستعداد . فمن الظلم الفادح ان يطلب المرء عملاً بهِ يفيد ويستفيد فيرى جميع الابواب مقفلة في وجههِ . إذن لا يعود الكسالى يتذرَّعون باحدى تلك الحجج المكذوبة « لا اجد عملاً »

خامساً — ايجاد معاهد كبيرة يأوي اليها من الابناء من شاء او من كان شقيا بين والديهِ فيضطرب بينهما فكره ، او تعتلّ صحتهُ ، او ينتقص عيشهُ او — ما هو اخطر من هذه جميعاً — يفقد صفاتهِ الحسنة وتتلاشى نزعاتهُ الطيبة . فقد وُجد الطلاق بحقّ ليفصل بين المتزوجين الذين ليسوا على وفاق وربحهم . ولكن كيف يعيش الابن الشقيّ بين ابويهِ ولمن يشكو همهُ ، وماذا يقول ؟

سادساً — ان تكون عيادة الاطباء والصيدليات والمستشفيات والتمريض مجانية للجميع على نفقة الحكومة او المجتمع . فمن العار ان يموت اناس لانهم ليس عندهم اجرة الطبيب ، وثمن العلاج ، او نفقات العملية الجراحية والمستشفى . كذلك يكون نقل الموتى والدفن مجانيًّا ومتشابهاً للجميع . فان مناظر الابهة في الجنازات لمن الامور المرسحية التي تشوه هيبة الموت . فما دام الناس متساوين في تسليم النفس الاخير فليكن دفنهم مظهراً للمساواة لا مجلى لفروق المراتب في تلك المركبات المنمرة « بريمو » و « سكوندو » و « ترسو »

سابعاً — نفقات المرافعات والدفاع والقضايا المختلفة تكون على الحكومة او المجتمع . وفي ذلك فضلاً عن المنافع الجمة ، رادع عن الرشوة في بلاد تُستعمل فيها الرشوة ، ورادع لجشع بعض المحامين الواسعي الضمير

ثامناً — ان يُفرَّق في السجون بين المسجونين حسب مراتبهم واخلاقهم . فان الثمرة الصالحة لا تعدي الثمرة الفاسدة ولكن فساد الثمرة الواحدة يمتد الى الى مئات الاثمار الصالحة . ولما كان الغرض من السجن كفّ اذى الجاني عن المجتمع

كان من الظلم ان يكون السجن مفسدة للجاني . فلا تُمنع عنهُ الكتب والصحف وما يطلبهُ من وسائل التثقيف سواء في العلم والفنّ والمهنة . ويجب ان يشتري طعامهُ ولباسهُ بعملهِ في السجن شأنهُ في المجتمع، والّا يُحقَر ويذلّ : بل يكون هناك في خلوة فيها يشعر بانهُ اخطأ دون ان يرى في النوع الانساني بأسرهِ عدوًّا وجلّاداً. لئلا تنقلب قوى نفسهِ خوفاً ، وكرهاً ، ومرارة ، ورغبةً في الفتك والانتقام

تاسعاً — يقولون ان العضو الفاسد في المجتمع يُقطع — نعم على شريطة ان يصيب الطبيب في الحكم بالفساد — لا ان يعود يُبرِّأ المسكين بعد تنفيذ الاعدام فيهِ ، كما وقع في بلادٍ كثيرة . ثمّ فليُجرَّد الاعدام من مظاهر القسوة التابعة لهُ . كايقاظ المحكوم عليهِ من رقادهِ الاخير لان ساعة التنفيذ دنت ، وإلباسه تلك الاثواب القرمزية ، وإحاطتهُ بجميع تلك الامور الرهيبة ، وتلاوة الحكم عليهِ في آخر لحظة من حياتهِ فلا يرى حولهُ إلّا وجوهاً صارمة ولا يلمس إلّا اليد الفاتكة . كلُّ ذلك لم ينفع إلى الآن في ردع أحد . لاسيما وان تلك الرهبة لا يراها سوى المحكوم عليهِ . فليكن الاعدام إذن بالكهرباء او بطريقةٍ سريعة جدًّا تقضي على الجاني بلحظةٍ دون ان ينتظر وقوعها دقيقة بعد اخرى . هذا بعد ابلاغهِ الحكم عليهِ بمدة كافية ليهيء نفسهُ للموت ولتعيد المحكمة نظرها في القضية فتكون واثقةً من صلاحية الحكم

اما المبالغ الضرورية للقيام بهذه النفقات فيؤتى بها من ضرائب سنوية تفرضها الحكومة باعتبار الثروات . وكلٌّ يؤدي الضريبة راضياً اذا ضمنت لهُ ما قد يبذل المبالغ الطائلة عند الحاجة اليهِ

لا ازعم ان فكري تمّ نضوجهُ ، بل ارجو ان يظلّ قابلاً للرقيّ والتطوُّر طول حياتي . ولكني لا اشكُّ في انّ هذه الاصلاحات ستتمّ في المجتمع عاجلاً اوآجلاً . لأني شاعرٌ بأن لا غنى عنها وان أهمالها جرم متجدّد مع الايام . المجتمع يُنيل الفرد حياةً لم يطلبها هو ، فعلى المجتمع اذن ان يهيء للفرد امكانية هذه الحياة حسيًّا واجتماعيًّا ومعنويًّا ثم يفتح لهُ ميدان المسابقة فتبرزُ فيها ملكاتهُ ومواهبهُ . واعتقد ان الاحسان الى الناس لا يقوم باعطائهم مالاً وقوتاً واثواباً يتمتعون بها بلا تعب، فيحسبون الحصول عليها من حقوقهم . بل الاحسان المهم هو في فتح

عيونهم على المقدرة الكامنة فيهم، وتنبيههم الى وجوب تبادل الحقوق والواجبات، وإفهامهم ان الذي لا يؤدي واجباً فلا حقّ له

بين الاستاذ سامي الذي ينكر السعادة وصديقي عوني الذي يرى كل السعادة في حذف رأس المال ومحو الفروق بين المراتب، اقف انا قائلا بأن هناك سعادة نسبية أبداً ممكنة. فقد سعدتُ في حياتي اياماً واسابيع، وكل الناس عرفوا طعم السعادة وطعم الشقاء . ولعلّ السعادة والشقاء مزاج أكثر منهما حالة نفسية . فمن البشر من خُلق سعيداً أو تعساً كما ان منهم البائس والعابس ، الشره والقانع ، البدين والهزيل . ولكن يتحتّم ان يؤدي المجتمع كلّ ما يمكنهُ ان يؤديهُ لاعضائهِ ، وهو الى الآن غير فاعل . المجتمع ايضاً يطالب بحقوق كثيرة ويؤدي واجبات قليلة . فلا غرو ان يحذو اعضاؤهُ حذوهُ

ها انذا وقعتُ في ما اتهمتُ الاحزاب بهِ وخلقتُ لي لُغة مسهبة لاقول قليلاً . وما منفعةُ اقتراحاتي على اهميتها ولجاجتها ، في هذا الزمن العصيب ؟ ان الارض لترتجّ تحت اقدامنا ويحمل الينا الهواء ما قد يكون لهيباً ودخاناً لحريق سحيق . فالنظم الاجتماعية تتطوّر ككل شيء حيويّ — كما قلتم في مقالاتك وكما هو الواقع — فلننتظر إذن ما هو كائن لاني اري الانسانية الآن كالافعى تغير ثوبها . أراها كالجوّ يتعاقب فيها السكون والزوابع ، الصفاء والغيوم ، النجوم والامطار . كفانا ان نرقب سير الحوادث متكلين على نفوسنا ، محدّقين في وجه الحياة بلا وجل ، مستعدين لتبيُّن النفع والجمال . ونحن ابداً كالارض امنا نقبل البذور الصالحة ثم نرسلها غلة وخيراً ، واذا هوت علينا الاشجار اليابسة تجمّدت في حضننا مادة النار واللهيب . ولنكن ابداً مطلقين هذا الهتاف الجامع بين الاخلاص والحيرة ، بين الزفير والابتهال : ها انذا وحدي ، ايها الليل ، فعلمني ما يجب ان اعلم ! ها انذا مستعد ، ايتها الحياة ، فسيرني حيث يجب ان اسير !

عارف

(صورة طبق الاصل)

« مي »